تركيا في الشرق الأوسط: بزوغ رؤية جيوسياسية مستقبلية جديدة

إبراهيم قالين *

ملخص

كان الباعث وراء الاهتمام المتزايد الذي حظيت به تركيا في العالم العربي في السنوات الأخيرة هو التقاء التغيرات في تركيا والشرق الأوسط، وتوازن القوى العالمية، فالعالم الإسلامي يتابع عن كَثَب العملية السياسية داخل تركيا، وسياستها الخارجية الجديدة، ومسألة انضمامها إلى الاتحاد الأوربي، وقد أدت أوضاع القوى الجديدة في الشرق الأوسط بصفة خاصة، والعالم بصفة عامة إلى ظهور تصورات جيوسياسية جديدة، فمن الدراما التلفزيونية والصادرات التركية إلى دور تركيا في لبنان وفلسطين؛ أصبحت تركيا تحتل مساحة جديدة في الرأي العام العربي بشكل غير مسبوق، وإذا كانت علاقات حزب العدالة والتنمية التركي مع العالمين العربي والإسلامي مسئولة بشكل جزئي عن نشاط السياسة الخارجية التركية المتجدد في المنطقة؛ فإن هذا النقاش يعكس إخفاقات النظام العالمي، ويبشر بتوازنٍ جديدٍ للقوى في محيط تركيا القريب.

خلال زيارتين منفصلتين للعالم العربي مؤخرًا، سُئلت عن المسلسلات التركية التي تعرض على شاشات العالم العربي، وفوجئ مضيفيّ بأنني لا أعرف الكثير عن هذه المسلسلات أو أبطالها أو قصصها، وكان أحد الأصدقاء السعوديين يحتفظ على هاتفه الجوال بمقدمة مسلسل Ihlamurlar Altinda الذي ترجم إلى العربية بعنوان "سنوات الضياع"، و دُبلج باللهجة العربية السورية، ومع نفس موسيقى المقدمة الأصلية استبدل المنتجون العرب كلمات الأغنية بكلمات عربية مما صبغها بصبغة عربية يصعب معها التفرقة بين ما هو عربي وما هو تركي، وترى السعودية ليلى أبو شامة - الناشطة في المجال الاجتماعي- أن هذه المسلسلات تكتسب شعبية متزايدة بين النساء خاصةً؛ لأن "هذه المسلسلات تعالج موضوعات تمثل مشكلاتهن الشخصية وتطلعاتهن"،[1] وتعليقًا على مسلسل « نور » - وهو مسلسل تركي آخر يتناول مشكلة مشكلة الطلاق الحساسة - تقول ابتسام عيسى، وهي ربة منزل لبنانية مسيحية: "إنهم تقريبًا مثلنا ، يعجبني بالفعل التزامهم بالتقاليد وولاؤهم للعائلة".

* مستشار رئيس الوزراء التركي للشئون الخارجية،
ibrahimkalin@gmail.com

(إن اعتبار تحديث تركيا استسلامًا تامًّا للحداثة الغربية جعل العديد من المفكرين العرب يستبعدون لعب أي دور في العالم الإسلامي من تركيا).

وتعتقد هانيا بسيط من لبنان أنها قد توصلت إلى حل اللغز حينما ترى أن "سر مسلسل نور يكمن في تناوله لشخصيات تحيا حياة غربية ولكنهم شرقيون، ولذا من السهل أن نرتبط بهم"[٢].

ولكن هناك من يعتقد أن هذه المسلسلات التركية تغرس قيمًا غربية تخريبية أكثر من كونها تعبيرًا عن الاهتمامات الأصيلة للمجتمع المسلم، فقد أصدر الشيخ عبد العزيز آل الشيخ، مفتي عام المملكة العربية السعودية، ورئيس هيئة كبار العلماء وإدارة البحوث العلمية والإفتاء بها، فتوى دينية ضد مسلسل (نور) واصفًا إياه بـ "التخريبي" و"المعادي للإسلام"[٣] ، ويرى ناشط إيراني- ويالغرابة – أن كل ذلك "مؤامرة" حاكها السعوديون والأتراك - وربما من ورائهم الأمريكان- لعزل الجمهورية الإسلامية الإيرانية ثقافيًّا وسياسيًّا.[٤]

تحديث تركيا ليس استسلامًا تامًّا للحداثة الغربية.

وعلى الرغم من وجود من يحطون من شأن حقيقة أن المنتجات الثقافية التركية مقبولة في البيوت العربية وفى قاعات الثقافة الشعبية العربية؛ فإنها في حد ذاتها حقيقة مهمة ومثيرة للفضول. فالاهتمام المتزايد الذي باتت تحظى به تركيا مؤخرًا في العالم العربي وما وراءه، يدعمه التقاء تغيرات جوهرية على صعيد ثلاثة مستويات: تركيا، والشرق الأوسط، والعالم. فليس للنظام العالمي الحالي مركز، أو بالأحرى له عدة مراكز مما يؤدي إلى نفس النتيجة، وهي أن مركز أو مراكز العالم أصبحت لقمة سائغة، ولم يلح في الأفق بعد من يمكن أن يعلن نفسه فائزًا.

والحديث عن "عالم ما بعد أمريكا" -إذا استعرنا التعبير من عنوان كتاب فريد زكريا الأخيرعن حالة القوة الأمريكية- قد يتحول بصورة متزايدة ، من ناحية ما، إلى نقاش حول ما بعد أمريكا الإمبريالية، ومن ناحية أخرى إلى " نهوض بقية العالم ."[٥]

وبالنظر إلى الأوضاع الجديدة للقوى العالمية يتضح أن الحرب الباردة لن تنتهي أبدا، ولكن يبدو أنها قد أخذت ببساطة صورًا جديدة، فصعود أمريكا من مرتبة القوة العظمى إلى منزلة القوة المهيمنة أثار تساؤلات ليس فقط عن قوة أمريكا، ولكن أيضا عن شرعية النظام العالمي.

وفي الوقت الحالي يبدو النموذج الصيني لهيكل القوى العالمية مقبولاً من قبل الجميع: قوة عظمى وحيدة، وعدة قوى كبيرة[٦]، وقد ظل الخبراء يتحدثون لسنوات عن صعود الصين كقوة سياسية اقتصادية كبرى، وقد كشفت دورة الألعاب الأوليمبية التي أقيمت في الصين في عام

٢٠٠٨م أن الصينيين لديهم ما يعرضونه على العالم أكثر من مجرد المنتجات الرخيصة، فالعالم يتحرك في اتجاهات متعددة، ولا يعلم أحد على وجه اليقين إلى أين سينتهي الأمر، فالمؤكد فقط هو أن سياج اليورو مركزية والعالم الأمريكي قد تحطم إلى الأبد(٧).

(التعليق على الكاريكاتير)

"(الزوجة في أثناء دخولهاإلي المحكمة).. يقول الزوج: أرجوك لا تخلعيني .. سأفعل أي شيء يرضيكِ، غدًا سأجري عملية تجميل للحصول على أنف كأنف مهند بطل مسلسل نور!!"

يسود شعور ببزوغ فجر جديد في كثير من بقاع العالم بخلاف العالم الغربي، ولكن هذا الشعور له مذاق خاص في العالم العربي، فمع أن له تأثيرًا محفزًا على الأجيال الجديدة، فهو يكشف أيضًا عن حدود المدة الطويلة لما يسمى بالصحوة العربية، فقد كان العالم العربي أسير ذكريات ماضٍ مجيد، وحاضر مؤلم، ومستقبل متخبط .. غير معروف، ولكنه واعد.

إنه يبحث عن مشروع يتبناه وقيادة يمكنه الوثوق بها، فكثير من الحواضر العربية (والإسلامية) اليوم بعيدة كل البعد عن نموذج المدينة المنورة، أولى مدن الإسلام، بعيدة عن مدينة الفارابي (المدينة الفاضلة) أو أي من مراكز التعليم الإبداعية العالمية مثل بغداد أو سمرقند أو قرطبة أو إسطنبول، ومع ذلك، وخلافًا لكل التوقعات، تقاوم المجتمعات العربية همسات النظام العالمي

الحالي بأنها لا تستطيع أن تشكّل العوامل الواعية بذواتها المؤثرة في تاريخ العالم مرة أخرى. فالعالم العربي مثله مثل كثير من بقاع العالم خلاف العالم الغربي يحاول استعادة فعاليته،. ومن هنا، كان البحث عن نماذج وأمثلة وخبرات جديدة.

أما عن تركيا، فهي بلد حديث أكبر من أن يكون مجرد وطن لأمة، وأصغر من أن يكون إمبراطورية، ولقد بدأت تركيا لتوها في أن تسلك سلوك وريث الإمبراطورية الواعي بقدره، الذي ما زالت قدرته على التخيل تحوم فوق كل من الأتراك والعرب والفرس والأكراد والبوسنيين والمقدونيين وغيرهم في محيطها الواسع.

وسواء شاءت أم أبت تركيا، فإنها وسط التصدعات الجيوسياسية الأوربية والآسيوية والشرق الأوسطية، وقد أثبتت الأزمة الأخيرة في القوقاز أن تركيا لا تستطيع إدارة ظهرها للتاريخ أوالجغرافيا، وسواء كان ذلك نعمة أو نقمة عليها فستظل تركيا في وسط الدوامات العالمية.

(لا تعبر التصورات التقليدية التركية عن "الخونة العرب"، ولا التصورات التقليدية للعرب عن "الاستعماريين العثمانيين" عن واقع الحال في المجتمعين العربي والتركي في يومنا هذا).

سيكون من التبسيط المبالغ فيه تفسير صعود أسهم تركيا في العالم العربي بالمبادئ الإسلامية التي تستند إليها قيادة حزب العدالة والتنمية وحدها، فالشخصيات السياسية تلعب دورًا مهمًا في

العلاقات الدولية، فيحدث الانخراط والالتزام الشخصي للقيادة السياسية أثرًا مختلفًا في كل من الأوقات العادية وأوقات الأزمات، ويُحسب للرئيس عبد الله جول ولرئيس الوزراء رجب طيب أردوغان أنهما واجها المخاطر لفتح آفاق جديدة من العلاقات لتركيا وإيجاد تأثير لها، ولكن من المؤكد أيضًا أن الشخصيات القوية لا تأتي من فراغ أو من غير سبب، وإنما تبرز نتيجة تلاقي مجموعة من العوامل التي تتجاوز العبقرية الشخصية والبطولة الفردية، علاوة على ذلك، فهناك مستجدات بالإضافة إلى الاستمرارية في سياسة تركيا الخارجية[٨]، وما يراه العالم العربي في تركيا اليوم – سواء كان حقيقيًا أو محض خيال - هو أكثر من مجرد دفء العلاقات الشخصية، فتركيا تمثل نوعًا جديدًا من الوكالة التي تتجاوز التضاد الثنائي للنظام القديم الذي كان موجودًا في القرنين التاسع عشر والعشرين، وتتجاوز حدود التقاليد والحداثة، والشرق والغرب، والوسط والأطراف، والقوة الخشنة والناعمة.

ففي أثناء أزمة الكويت على سبيل المثال، كان من الواضح أن تركيا تتطلع إلى المشاركة بدور فاعل "تسهيلي" في الصراعات الإقليمية كمحاولة لتعزيز دورها في الربط بين الشرق والغرب[٩]. ويوضح د. بشير نافع، المفكر العربي البارز والخبير في الشئون التركية، سياسة حزب العدالة والتنمية التركي الخارجية باستخدام ما يطلق عليه اسم العثمانية الجديدة، التي تسعى إلى إحياء الإرث العثماني من السياسة العالمية في نظام القوى العالمي الحالي[١٠]، ويبدو أن ذلك أحد ملامح تركيا الجديدة التي تلقى صدىً واسعا في العالم العربي، وهو ما يمكن إجماله في: تبني العولمة دون انعزال عن الارتباطات الإقليمية.

تتشبع المفردات السياسية في العالم العربي بإشارات إلى إخفاقات تركيب القوى العالمية وأساليب التغلب عليها، وما يثير الاهتمام هو ربط الحديث عن تركيا بهذا النقاش، ومن الأمثلة الصارخة على ذلك ما يورده أنتوني شديد ببراعة عن حياة العراقيين في كتابه "الليل يقترب: شعب العراق في ظل حرب أمريكا"، فإن ما لاحظه شديد وصدمه، هو غياب لفظة "الحرية" عن قاموس الحوار اليومي العربي، مع أن لفظة «العدل» لها وجود كثيف في كل الحوارات السياسية في العالم العربي.

(إنها ليست تركيا فقط التي تعيد اكتشاف الشرق الأوسط، بل إن الشرق الأوسط أيضا يعيد اكتشاف تركيا واحتضانها)

إنه "مفهوم يصوغ المواقف بدءًا من إسرائيل وانتهاءً بالعراق، فمفهوم العدالة دائمًا ما يحظى بأهمية قصوى عند أولئك الذين يشعرون بأنهم دائمًا على الجانب الخاسر".

نعم؛ هناك الكثير من الأحاديث عن نظريات كبرى حول النظام العالمي، وحول ألاعيب القوى الكبرى، والعولمة، والصحوة العربية، ومآسي عالم ذي قطب واحد، والإقليمية .. الخ، في كل من الشارع العربي وقاعات السياسة العربية، ولكن النقطة الأساسية هي أن التماس العدالة مصحوب بتعطش للشرف والاحترام وتقدير الذات، وعلى مر التاريخ الإسلامي امتدادًا من المرحلة التقليدية إلى العصر الحديث، ارتبط الحكم الرشيد دائمًا في العقلية المسلمة بمفهوم العدل.

الدراما التركية تتغلغل في عمق مشكلات المجتمع العربي

والعامل المشترك بين كل هذه الأشياء هو الدعوة لإعادة صياغة هيكلة القوة في العالم، فقد سعت التعريفات القديمة والحديثة للقوة إلى تشكيل الأوضاع الجيوسياسية من خلال الأولوياتالجيو- ثقافية والاقتصادية العالمية للقوى العظمى، فلم يكن للتوسعية الأمريكية أي اهتمام بالأشكال البدائية للاستعمار الثقافي للدول الأوربية في القرن التاسع عشر، ولكنها فضلت أن تروج للديموقراطية، وحقوق الإنسان، والسوق الحر، والقيم الليبرالية الأخرى كقيم ضرورية للحفاظ على توازن القوى العالمي لصالح المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة[١١].

وقد وضعت هيكلة القوى في مرحلة ما بعد الحداثة المزيد من التأكيد على المعاهدات والمؤسسات والتحالفات العالمية بدلاً من القوة العسكرية، وحاولت خلق نوع من الوعي العالمي للتعامل مع مشكلات العالم، ولكنها لم تغير الإطار العام الأساسي حول كيفية تفاعل القوى، وكيف يجب أن يتم استخدامها بروح من المساواة والتوزيع العادل للقوة، فقد فَقَد مصطلح "المجتمع الدولي" كمصطلح يعبر عن الشرعية الكثير من معناه ووظيفته ومصداقيته، فالنظام العالمي الحالي بعيد عن مثاليات "ايمانويل كانت" في كتابه " نحو السلام الأبدي"، وعن نموذجه عن نظام عالمي عادل يعامل أعضاءه بعضهم بعضًا بروح الإخاء والمساواة، ويتصرفون بروح من الكياسة والانصياع الصارم للقانون الدولي[١٢].

وفي عالم ينزف بسبب جروح الطمع البشري، والجهل، والظلم، فإن كل تصرف يتسم بالعدالة يجد عددًا لا حصر له من الناس حول العالم يحاولون فورًا امتلاكه ونسبته إليهم، وقد استطاعت تركيا مداعبة خيال العرب والأمم الإسلامية الأخرى؛ لأن سياساتها متعددة الأوجه، وينظر إليها على أنها تخدم العدالة، ليس للأتراك وللمصالح الوطنية التركية فحسب، ولكن لكل

شخص يتطلع إلى العدالة في المنطقة، وإذا رحنا نعدد الأمثلة التي ألهم فيها الأتراك شعوبًا خارج حدود تركيا الوطنية فسنجدها قائمة طويلة من قضايا السياسة الخارجية، منها: رفض البرلمان التركي السماح للقوات الأمريكية باستخدام الأراضي التركية لغزو العراق في عام ٢٠٠٣م، وكذلك محاولة تركيا الدءوبة والمحفوفة بالمخاطر -نوعًا ما- لتوحيد جزيرة قبرص في عام ٢٠٠٤م، وإسهاماتها الفعالة في العراق منذ الغزو، وحماسها للحصول على العضوية الكاملة في الاتحاد الأوربي، وزيارة حماس عام ٢٠٠٦م، وإرسال القوات التركية إلى لبنان بعد الحرب اللبنانية الإسرائيلية، والتزاماتها في فلسطين، وجذبها لرأس المال الخليجي، وزيارات المسئولين الأتراك التي لا حصر لها لكل الدول العربية تقريبا.

(إن تركيا تطرح تصورًا ثقافيًا جديدًا، تصورًا يتجاوز الحدود الثابتة بين الشرق والغرب، بين الشمال والجنوب، بين العالمين الإسلامي والغربي.)

فلننظر مثلاً إلى السعادة والابتهاج الخالصين الذين شعر بهما السوريون بسبب مباراة كرة القدم التي دارت بين فريقي (نادي فناربهتشه) التركي والمنتخب الوطني السوري، والتي حضرها رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان والرئيس السوري بشار الأسد، في وقت كانت سوريا تحاول فيه جاهدة الخروج بنفسها من انطواء ذاتي خانق وسنوات من العزلة.

وعلى الرغم من أن اللقاء الذي كان في أنقرة بين حامد كرزاي رئيس أفغانستان وبرويز مشرف رئيس باكستان، أو ذلك الذي كان في البرلمان التركي بين محمود عباس وشيمون بيريز، أو الذي كان في العاصمة التركية بين خافيير سولانا وعلى لاريجاني؛ لم يسفر -أي منها- عن نتائج ملموسة، فإنه لا يمكن إغفال إشارته الرمزية، ولا يمكن أيضًا إغفال إمكانات منتدى أنقرة الذي ترأسه الاتحاد التركي للغرف وتبادل السلع TOBB لتحسين الظروف الاقتصادية للفلسطينيين.[١٣]

تركيا والأوضاع الجيوسياسية الجديدة في منطقة الشرق الأوسط

الجديد والمثير في كل ذلك هو رغبة الجيل الجديد من صناع السياسة الأتراك وناشطي المجتمع المدني في الانخراط في دهاليز الدبلوماسية الإقليمية مع الاحتفاظ في الوقت نفسه بعلاقات طيبة مع مراكز القوى التقليدية، أي مع الولايات المتحدة وأوربا وروسيا، إنها أكثر من مجرد مسألة إرادة فحسب، فهي تبشر بتصور جديد، خريطة جيوسياسية مختلفة وحزمة جديدة من المبادئ تحاول تركيا بواسطتها التواصل والانخراط مع جيرانها المباشرين ومع اللاعبين الدوليين، ويرى المتشككون أن هذه المحاولات طموحة ومثالية أكثر من اللازم، وأبعد ما تكون

عن تحقيق نتائج ملموسة، فالواقع أن المقابلة بين عباس وبيريز في أنقرة قبل الذهاب إلى أنابوليس لم تسفر عن حل للمشكلة الفلسطينية، والمباحثات الحالية بين سوريا وإسرائيل برعاية تركيا ربما لا تسفر عن أية نتيجة، وقد تنجح تركيا أو تفشل في دعم تدشين عراق موحد وديموقراطي وآمن ومزدهر بعد الاحتلال الأمريكي، فالمسألة تحتاج لما هو أكثر من مجرد الإرادة التركية لخلق عراق يتجاوز العرقية والمذهبية، وقد تفشل الوساطة التركية للمصالحة بين فتح وحماس في الضفة الغربية وقطاع غزة أيضًا، وإذا ما اتجهنا إلى الشمال، فربما لا يسفر البرنامج التركي لاستقرار وشراكة القوقاز عن نتائج ذات قيمة على المدى القصير.

العالم العربي يحاول إشراق فجر جديد من الحرية، ويبحث في سبيل ذلك عن نموذج يحتذى كتركيا

ولكن كل هذا لا يغير من حقيقة أن تركيا تمضي قدمًا برؤية جديدة وطاقة تبعث روح العدالة والشرف التي يشاركها فيها العالمان العربي والإسلامي، وقد كتب مصطفى اللّباد، أحد الخبراء المصريين في الشئون التركية، في جريدة الأهرام الأسبوعي Al Ahram Weekly مشيرًا إلى رغبة تركيا في أن "تؤكد وجودها بقوة كلاعب رئيس في الشرق الأوسط الجديد، وهو هدف وطني يشترك فيه حزب العدالة والتنمية مع غيره من الأحزاب التركية الأخرى"، ووفقًا لوجهة نظر اللّباد، فإن تركيا مصممة على جعل وجودها محسوسًا،وقد قامت بخطوات ملموسة لتحقيق ذلك، أفضلها هو تحسين ظروف تحالفها تحت المظلة الأمريكية، والشفافية الملحوظة والتناغم العام في الأهداف الذي يميز الطريقة التي أدارت بها تعافيها الا قتصادي، وتعليقًا على نفس الموضوع، كتب باحث آخر في جريدة الحياة ليلفت الانتباه إلى جانب آخر من جوانب التزامات السياسة التركية الخارجية: "تهدف التجربة التركية إلى تنظيم التعايش بين حزب له جذور إسلامية ودستور علماني؛ وإلى تحقيق رغبة تركيا في لعب دور أكبر في العالم الإسلامي دون أن يضطرها ذلك للانسحاب من حلف الناتو أو التخلي عن حلم الانضمام للبيت الأوربي، إن تركيا تبحث عن دور في الشرق الأوسط عبر دعم قدرتها على الاحتفاظ بعلاقات فاعلة مع كل الأطراف"[١٤].

ما هو الاستنتاج الذي ينبغي أن نستقيه من كل ذلك؟ كما هو متوقع، إنها الطبيعة متعددة الأوجه للتجربة التركية الجديدة بكل جوانبها من الإسلام والديموقراطية إلى السياسات الإقليمية والدولية، وينهي اللّباد تحليله بما يمكن أن يعكر صفو القوميين العرب القدامى؛ حيث ينصح

مواطنيه المصريين ومواطني الدول العربية الأخرى بـ "دراسة هذين الجانبين على الأقل من نجم تركيا الصاعد، فإسطنبول ليست مجرد جسر بين الثقافات، ولكن أيضًا بين الرؤى السياسية المختلفة."[١٥] وفي هذا السياق، فإن تركيا ليست وحدها فقط من يعيد اكتشاف الشرق الأوسط، ولكن الشرق الأوسط أيضا يعيد اكتشاف تركيا، بل احتضانها أيضا.[١٦]

رؤية مفككة أم تصور جديد؟

ومع ذلك فإن مسألة مناقشة تركيا في العالم العربي هي أكثر من مجرد كونها حوارًا سياسيًّا إقليميًّا، فتركيا تخطط لتصور ثقافي جديد، تصور يتجاوز الحدود الثابتة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب أو بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، وقد يدعي البعض أن هذا أفضل ما في العالم الإسلامي والعالم الغربي، ولكن حتى هذا لا يرقى إلى أن يتمكن من الوصول إلى ديناميكية الأشكال الجديدة للتكوين الثقافي؛ ولا تزال "نماذج الجسر" تستعيد صورًا من الثقافات الثابتة والهويات المتجمدة والجماعات المتشددة، فالعالم الحقيقي أكثر مرونة من الأفكار التصوّرية، وعلاوة على ذلك فإن تحديد تركيا أو أي بلد آخر بالنسبة لهذه المسألة، يفترض أن تركيا لم تتخذ موقفًا من تلقاء نفسها، فما هي إلا جسر يعبر عليه الآخرون، وعلى الرغم من تداخل العديد من القارات والبيئات الثقافية؛ يمكن أن يُنظر إلى تركيا على أنها مثال حي لما سماه المفكر الإسلامي ابن خلدون في القرن الرابع عشر بـ "*العمران*"، كوسيلة لغرس المبادئ العالمية والأعراف القوية والأفق المتفتح في جميع أنحاء العالم، ويتطلب التصور الثقافي التكيف والقدرة على التعلم من مصادر مختلفة ومن تواريخ متعددة، ويبدو أن هذا هو ما تحاول تركيا القيام به مع ماضيها العثماني والإسلامي، وحاضرها المعاصر.

تركيا في قلب الحدث جغرافيًّا وتاريخيًّا شاءت ذلك أو أبت

(تركيا دولة حديثة أكبر من الدولة القومية وأصغر من الإمبراطورية)

فبالنسبة للعالم العربي وما وراءه؛ فإن قوة تركيا الناعمة أصبحت -على نحو متزايد- موضوعًا للنقاش بين الأكاديميين والسياسيين والخبراء والصحفيين، بل حتى رجال الأعمال[١٧]؛ ومن الواضح أن هذه المسألة هي أكثر من مجرد مسألة اهتمام أكاديمي، فإمكانية تركيا في التأثير على منطقتها اقتصاديًّا وثقافيًّا تجبر تركيا -على حد تعبير أحمد داود أوغلو مهندس السياسة الخارجية التركية الجديدة- على اتخاذ موقف "توفير الأمن والاستقرار ليس فقط لنفسها، ولكن

أيضًا للمناطق المجاورة لها"[١٨]، وإلى جانب الأمن والاستقرار، تتحرك تركيا بسرعة في ميزان الاقتصاد العالمي، وباقتراب الناتج المحلي الإجمالي من ٧٠٠ مليار دولار، أصبحت تركيا الآن تحتل المركز السابع عشر في قائمة أكبر اقتصاد على مستوى العالم والمركز السابع في أوربا.

إن قدرة تركيا على جذب الاستثمار الأجنبي المباشر من جميع أنحاء العالم تسير جنبًا إلى جنب مع النمو الاقتصادي وعدوها بالأعمال التجارية المربحة، ولكن هذا يقوم ويعتمد أيضًا على الركائز الديموقراطية، ونظام الشفافية والمساءلة، وأيضًا على مستوى معقول من الاستقرار السياسي، وهذا ما يبحث عنه المستثمر العالمي في أي بلد، وهذا بالتأكيد هو الواقع بالنسبة لاقتصاديات الخليج في العالم العربي الذي يبحث عن أماكن آمنة للاستثمار بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وحرب جورج بوش على الإرهاب.

المجتمع الدولي «كمصطلح يعبر عن الشرعية» فقد الكثير من معناه ووظيفته ومصداقيته.

ومع ذلك، فإنه لا يمكن تفسير القوة التركية الناعمة من خلال سياسة (العصا والجزرة) على غرار العلاقات الدولية الأمريكية، وقد استحق جوزيف ناي الثناء على شرحه تعقيدات القوة الحديثة، فالقوة الناعمة في العالم غير الغربي تحتوي على أكثر من حزمة من الحوافز الاقتصادية أو المؤشرات الدبلوماسية، فهي راسخة في بعض المفاهيم من التقارب الثقافي والمصاحبة التاريخية، والقرب الجغرافي، والصور الاجتماعية، وكل هذه الاشياء تخلق شعورًا بالانتماء، أضف إلى هذا أن تركيا دولة ديموقراطية وقوية ومزدهرة، مع ما لديك من صورة مختلفة للغاية من الديناميكيات الإقليمية، فالصورة التركية القديمة عن "الخونة العرب" والنظرة العربية لـ "الإمبرياليين العثمانيين" لم يعد لهما وجود في المجتمعات العربية والتركية في الوقت الحالي[١٩].

لقد أحدث الشعور بالتفكك في العالم العربي جرحًا عميق في نفس المثقفين العرب، فبعض من في المنطقة يعتقدون أن الأتراك والإيرانيين تمكنوا من تكوين دولة واحدة من الإمبراطوريات القديمة، في حين أن العرب قد دخلوا إلى العالم الحديث بـ ٢٢ دولة، كل منها تشكك في شرعية الأخرى وأهميتها، فالمرء دائمًا يسمع الكلام الانفعالي عن أن هذه الفرقة تسمح للقوى الغربية وإسرائيل، وكذلك للدولتين التركية والإيرانية بالتلاعب بالعرب.

(التصور الثقافي يتطلب القدرة على التكيف والقدرة على التعلم من مصادر مختلفة وتواريخ متعددة، ويبدو أن هذا هو ما تحاول تركيا القيام به مع ماضيها الإسلامي– العثماني، ووجودها الحديث)

ومع ذلك فواقع أن العرب لا يمكن أن يشعروا بوضعهم المتفكك يقوض القومية العربية، فبعد أن جرب العالم العربي أشكال شتى من القومية، بدءًا من عبد الرحمن الكواكبي والشريف حسين، ووصولاً إلى ميشيل عفلق وجمال عبد الناصر، فإن العالم العربي في القرن الحادي والعشرين يتعين عليه أن يذهب إلى ما هو وراء الحدود القومية وما بعدها، هذا على الرغم من حقيقة أن القومية والنزعة الإقليمية من منظور ما بعد الحداثة تعود بكامل طاقتها إلى عالم ما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، لكن كل ذلك تتم مقاومته من خلال زيادة الوعي بحقيقة أن القومية التافهة للدولة القومية القديمة في البلدان العربية والإسلامية قد أصبحت غير ملائمة وتأتي بنتائج عكسية، وهذا هو المكان الذي اكتسب فيه الناشطون غير العرب أهمية جديدة، فبالنظر إلى المشكلات التاريخية والطائفية بين الدول العربية السُّنية وبين إيران، وإلى طموحات إيران الإقليمية؛ سيتضح أن تركيا تحظى بمكانة فريدة من نوعها، وليس الأتراك التقدميون وحدهم من يحيطون بهذا الأمر علمًا.

فعلى سبيل المثال؛ ينعى المفكر اللبناني البارز الدكتور رضوان السيد على العرب واقع انقسامهم، عندما يفكر في التجارب المثيرة للدول العربية في القرن العشرين، ويرى أن الأتراك والإيرانيين خرجوا من اضطرابات القرن التاسع عشر بأفضل شيء، فقد حصلوا على دول قومية، خضعت لإصلاحات دستورية، ودخلت في تحالف مع الغرب بعد الحرب العالمية الثانية، ولم يقاتل بعضها بعضًا، وعلى النقيض تمامًا؛ فقد عانى مع العرب كثيرًا، حيث نسى كلا الجانبين وجودهم، وذلك بسبب غيابهم الطويل عن هذه المرحلة التاريخية، في حين أن كلتا الأمتين الإيرانية والتركية نجحت في الحفاظ على ما اعتبروه حقوقا قومية أساسية، وفشل العرب في توحيد وبناء دولة حديثة (حتى في مصر)، ويبقى قيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين أساس الجرح القومي، وربما يظهر جرح آخر في العراق"[٢٠]، ويناقش رضوان السيد الدور الأكبر للعرب أنفسهم في شئون الشرق الأوسط، فيقول: "إننا على شفا عصر جديد وشرق أوسط جديد، ولكن المثير للاهتمام أن إيران وتركيا هما اللتان تشكلانه، وليس إسرائيل أو الولايات المتحدة . "

مما لا شك فيه أن تطوير منظور إقليمي من دون الوقوع في فخ "العالم الثالث" ليس هدفًا سهلاً، ومع ذلك فإن تحقيقه ليس أمرًا مستحيلاً، فقد حاول العديد من المثقفين والساسة العرب في مرحلة ما بعد القومية صياغة إطار للتغلب على هذا الانقسام، إنهم تعبوا من استمداد "أهميتهم الاستراتيجية" من أمرين لا يتحكموا بهما: النفط وإسرائيل.

(حزب العدالة والتنمية باعتباره حزب يمين الوسط ذا المرجعية الإسلامية قلق من التصنيف المبسط للغاية لما يعرف باسم الإسلام ضد الغرب).

فالنفط يجعلهم أغنى المنبوذين في العالم، و"إسرائيل" تشعرهم بالمهانة القومية والعذاب الجماعي، هذا الشعور يشوه -إذا لم يقوض بالكامل- جميع المحاولات الرامية إلى تجنب مخاطر عولمة بلا جذور من ناحية، والعزلة التي فرضتها الأمة العربية على نفسها تحت اسم الكرامة الوطنية من ناحية أخرى.

آفاق جيوسياسية وحزمة جديدة من المبادئ تحاول تركيا من خلالها التواصل والانخراط مع الجيران المباشرين واللاعبين الدوليين

تركيا والإسلام والديموقراطية

من المجالات التي تابعت فيها الساحة الفكرية العربية عن كثب تركيا فترة ما بعد التجربة الإسلامية لحزب العدالة والتنمية مع الإسلام والعلمانية، ففي حين أن المسئولين في حزب العدالة والتنمية قد وضحوا منذ البداية أن حزبهم لا يقوم على أساس الهوية الدينية، فإن الكثيرين في الغرب وكذلك في العالم العربي والإسلامي رأوا في حزب العدالة والتنمية تجربة جديدة ونهجًا جديدًا للمشكلة القديمة وهي العلمانية ضد الدين أو التقاليد في مقابل الحداثة في ديار الإسلام. وقد كانت مغامرات حزب العدالة والتنمية مع العلمانية التركية، التي ساندتها المؤسسة العسكرية البيروقراطية ودافعت عنها بشراسة على حساب الديموقراطية محل نقاش واسع تجاوز النقيضين: علمانية قمعية وبلا روح من جهة، ومن جهة أخرى تطلعات لتفسير الدين من منظور ضيق وقانوني في معظمه.

والمثير هنا هو كيفية ترجمة ذلك إلى نقاش عام في العالم العربي حول الإسلام والحداثة والعلمانية والغرب، فمنذ إلغاء الخلافة وقيام الجمهورية التركية العلمانية الجديدة في عام ١٩٢٤م، نظر العرب إلى تركيا على أنها تركت *دار الإسلام* من الناحية العقائدية والجيوسياسية، ففي الحادثة الشهيرة في التاريخ الحديث، كان أحمد شوقي (المتوفى في ١٩٣٢م)، أول وأعظم شاعر مصري حديث، يشيد بأتاتورك كقائد للحرب الإسلامية الاستقلالية ضد هجوم القوى الغربية. وانتقد أحمد شوقي نفسه حركة أتاتورك في إلغاء الخلافة الإسلامية، فعلى ضوء تعريف الحداثة التركية على أنها الاستسلام التام للحداثة الغربية، رفض الكثير من المثقفين العرب تركيا

غير الفاعلة في العالم الإسلامي[٢١]، أما الآن، فإن المشهد مختلف تمامًا، حيث يرى عمرو حمزاوي في مقال له في جريدة الأهرام ويكلي Al-Ahram Weekly أن تطوير الهوية السياسية لحزب العدالة والتنمية له تداعيات خطيرة "على نشاط الإسلاميين في العالم العربي" [٢٢]، وقد ذهب أحد المعلقين في برنامج تليفزيوني بعيدًا عن ذلك إلى حد القول بأنه "حتى لو كانت تركيا دولة إسلامية نمطية... فإن تجربتها مع الديموقراطية هي منارة للنور في المشهد المظلم، إن ما يحدث في تركيا اليوم هو بمنزلة تكذيب لما يسمى بـ "صدام الحضارات." [٢٣]

إسطنبول ليست مجرد جسر بين الثقافات، ولكن أيضًا بين الرؤى السياسية المختلفة.

وحتى على المستوى الرسمي هناك تغييرات مهمة، فقد قال وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل، واضعًا جمهوره العربي في الاعتبار على ما يبدو، إن "الطابع العلماني لتركيا لن يكون عقبة في طريق تشكيل شراكة استراتيجية بين الرياض وأنقرة"، وقد أدلى الوزير بهذا التصريح خلال زيارة الملك عبد الله إلى تركيا في أغسطس ٢٠٠٦م، وهي الزيارة المتبادلة الأولى من نوعها التي يقوم بها الملك السعودي إلى تركيا.

لقد ظل قادة ومسئولو حزب العدالة والتنمية بعيدًا عن أي اقتراح بأن تركيا تعتبر أو يجب أن تكون نموذجًا لغيرها من الدول الإسلامية[٢٤]، ومع ذلك تظل الحقيقة هي أن حزب العدالة والتنمية كحزب يمين الوسط ذي المرجعية الإسلامية قلق بشأن التصنيف المبسط للغاية لما يعرف باسم الإسلام ضد الغرب، فقد استطاع هذا الحزب تعبئة أكثر الشرائح المحافظة في المجتمع التركي على اتخاذ نهج مختلف لتعزيز هدف تركيا في الانضمام إلى الاتحاد الأوربي، وفي الوقت الذي يرفض فيه المشككون في حزب العدالة والتنمية ذلك كأداة لتقديم "أجندتهم الخفية"، فإن القيادة السياسية لحزب العدالة والتنمية تصر على أن عضوية تركيا في الاتحاد الأوربي هي هدف أكثر من مجرد كونها تحالفًا اقتصاديًا وسياسيًا مع أوربا، وهي الحقيقة التي تتمتع بها تركيا بالفعل في عدد من المجالات، بل إن رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان قد قال في عدد من المناسبات، حول عضوية تركيا في الاتحاد الأوربي، إن "المشروع الحضاري، هو المشروع الذي يقوم على القيم المشتركة والهموم المشتركة، وتشمل هذه القيم الديموقراطية التمثيلية، والشفافية ، وسيادة القانون وحقوق الإنسان واقتصاد السوق الحر، حيث إن هذه المبادئ تفتح مجالاً أكبر لسوق الأفكار الحرة، والعلمانية التركية القديمة تشعر بالمحاصرة والحرمان،

والحاصل الآن هو تغير الاتجاهات والتراجع عن المواقف التقليدية، فالآن في معاقل العلمانية التركية التقليدية الحديثة المستغربة تتم محاربة عضوية تركيا في الاتحاد الأوربي لأسباب تتعلق بالأمن القومي والكبرياء، بينما تقبل الجماعات المعارضة تقليديًّا لأوربا -على اعتبار الأمر هوية سياسية وثقافية- الالتحاق بالاتحاد الأوربي، وتعتبر ذلك جزءًا من الهوية التركية الجديدة.

قوة تركيا الناعمة تضمن استقرارا لها والأمن لجيرانها، فضلا عن النمو الاقتصادي الكبير، ولا يمكن أن تفسر بسياسة العصا والجزرة.

لم تغب هذه الحقيقة عن الكثيرين في العالم العربي، فقد فسر المذيع التليفزيوني محمد سيد أحمد دافع حزب العدالة والتنمية للانضمام إلى الاتحاد الأوربي كمفتاح لانتصاره الوطني الأول في انتخابات نوفمبر ٢٠٠٢م، لكنه أضاف أن "هذا التطور قد أخذ بعدًا جديدًا كليًّا لهذه المشكلة القديمة للعلاقات بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي." [٢٥]، وما قاله هذا الكاتب العربي حول الاعتراض الأوربي على عضوية تركيا الكاملة في الاتحاد الأوربي هو دلالة على مزاج سائد في كثير من أنحاء العالم غير الغربي، حيث قال: "تركيا مطالبة بأن تكون جزءًا من الغرب عندما يتعلق الأمر بالأمن للدفاع عن مصالح الغرب الاستراتيجية، لكن مساعيها في أن تصبح جزءًا من الهوية الغربية يتم رفضها"، وتجدر الإشارة هنا إلى أن تركيا لا تريد أن تصبح جزءًا من "الهوية الغربية" المحددة، ولكن من المؤكد أن طلب تركيا الانضمام إلى الاتحاد الأوربي قد فضح حدود الليبرالية الثقافية الأوربية، فبالنسبة للكثيرين في أوربا -بما في ذلك الرئيس الفرنسي ساركوزي والمستشارة الألمانية إنجيلا ميركل- تتوقف الحدود الثقافية لأوربا عند أبواب تركيا، وهذه طريقة أخرى للكشف عن حدود أوربا كلاعب عالمي، وهذا أيضًا لم يكن غائبًا عن الكثيرين في الشرق الأوسط.

الخاتمة

إنه من الإنصاف أن نقول إن مناقشة وضع تركيا في العالم العربي مرتبط بالجدل الأكبر الدائر حول الصور الماضية والمظالم الحالية والآمال المستقبلية للمنطقة، والنقاش أيضًا حول مأزق الحداثة والرؤى البديلة للنظام الدولي وتطلعات العالم الإسلامي، وفي حين أن ميزان القوى العالمي لم يزل يُبعد جزءًا كبيرًا من العالم؛ تظهر خرائط جيوسياسية وجيو- ثقافية جديدة لفتح مجال أكبر لوجهات النظر الإقليمية والعالمية الجديدة، ويختلف التصور الجيوسياسي عن ذلك

التصور في القرنين التاسع عشر والعشرين؛ حيث يستدعي تعريفات جديدة للقوة ومجموعة مختلفة من القيم والمبادئ التي قد تؤدي إلى سلام محتمل، إن لم تؤد إلى سلام "دائم"، وهذا يتطلب أيضًا مناقشة المصطلحات الجيوسياسية الخاصة بالقرن التاسع عشر مثل مصطلح "الشرق الأوسط".

ومن المؤكد أن تأثير وسرعة وتيرة الأفكار الجديدة سيتطور، ليس وفقا للنموذج القديم لتأثير كرة الثلج (الذي يزيد في الأهمية بشكل سريع)، وهو تأثير خطي وغير ملائم، ولكن وفقًا لتأثير الفراشة التي يمكن أن يكون لها آثار كبيرة ومهمة في أماكن مختلفة، والتي هي أكثر ديناميكية، وغير مرئية ومثيرة للدهشة، نعم؛ في نهاية المطاف سوف تستبدل المنتجات الثقافية التركية ويحل محلها الموضات الأخرى في السوق، وربما تضع المنافسات الإقليمية الجديدة تركيا وبلدان أخرى في خلاف بشأن القضايا الاستراتيجية الرئيسة، لكن النقاش حول اللاعبين الإقليميين الجدد والمتنافسين العالميين، في طريقه بالفعل لإنتاج تصور جيوسياسي جديد.

الهوامش

(١) "المسلسلات الدرامية التركية تكتسب شعبية في العالم العربي"، الشرق الأوسط ، ٢٧ أبريل ٢٠٠٨ م.
http://www.aawsat.com/english/news.asp?section=7&id=12568.

(٢) رولا خلف، "المرأة العربية مولعة ببهجة المسلسلات الدرامية التركية:
http://www.ft .com/cms/s/0/1d14872c-762a-11dd-99ce-0000779fd18c.html?nclick_check=1.

(٣) الديلي ستار: edition_id=1&categ_id=4&Article_ ID = 95379?
http://www.dailystar.com.lb/article.asp.

(٤) حسن هاني زاده "المسلسلات التركية ليست نظيفةً جدًّا"، طهران تايمز ، ٢٨ أغسطس ٢٠٠م.

(٥) انظر على سبيل المثال، أليس أمسدن ، نهوض بقية العالم": تحديات للغرب من خلال الاقتصاديات الصناعية الحديثة (نيويورك : مطبعة جامعة أكسفورد ، ٢٠٠٣م).

(٦) روبرت كاغان ، "نهاية الأحلام، عودة التاريخ: التنافس الدولي والقيادة الأمريكية" بوليسي رفيو، رقم ١٤٤، (أغسطس وسبتمبر ٢٠٠٧م)
http://www.hoover.org/publications/ policyreview/8552512.html

(٧) أقول "تصور" لأن التفاوت الاقتصادي والعسكري بين الغرب وبقية العالم لا يزال ضخمًا، كما بيّن بول كولير في كتابه "بليون القاع": لماذا تفشل البلدان الأكثر فقرًا وما الذي يمكن عمله حيال ذلك (أكسفورد : مطبعة جامعة أكسفورد ، ٢٠٠٧م) ، الفقر العالمي والمشكلات المرتبطة به لم تزل تسبب صدعًا كبيرًا في نظام العالم الحاضر، ويمكن للمرء أن يقول مع توم فريدمان إن "العالم مسطح"، ولكن ما يظهر حقًّا كشعور سائد هو أن العالم قد تم تسويته بالأرض على حساب الضعفاء.

(٨) كانت زيارة الرئيس التركي السابق أحمد نجدت سيزر الرسمية إلى سوريا في ٢٠٠٥م، مثالاً يثبت خطأ وجهة النظر الشائعة القائلة بأن مبادرات تركيا الشرق أوسطية تأتي فقط نتيجة لجذور حزب العدالة والتنمية الإسلامية وروابطه الخاصة في العالم العربي، فسيزر الذي لم يكن رئيسا محايدًا وكانت له مواقفه المعارضة لحزب العدالة والتنمية في مسائل جوهرية، لم يلغِ زيارته لدمشق على الرغم من الضغط الأمريكي، ومثال آخر هو تقرير معهد السلام الأمريكي في ١٩٩٥م عن تركيا في فترة ما بعد الحرب الباردة، حيث يقول ملخص التقرير: "يبدو أن نهاية الحرب الباردة تنذر بتراجع أهمية تركيا الاستراتيجية بالنسبة للغرب، إلا أن التغيرات السياسية في العالم منذ عام ١٩٨٩ م قد خففت أيضًا من القيود التي تعمل تركيا من خلالها، ونتيجة لذلك تم تحويل السياسة الخارجية لأنقرة من توجهها الغربي الشديد إلى بلدان الشرق الأوسط التي من المحتمل أن تصبح أكثر أهمية، فقد تم دراسة التغير في العلاقة بين تركيا – المتمركزة بشكل فريد بين كل من الغرب والشرق – وجيرانها في الشرق الأوسط في

مؤتمر معهد الولايات المتحدة للسلام بعنوان "الجار الممانع: تحليل دور تركيا في الشرق الأوسط" الذي عقد في ١-٢ يونيو ١٩٩٤م، "للاطلاع على التقرير، زر الموقع:
.http://www.usip.org/pubs/peaceworks/pwks1.pdf

(٩)"تركيا تسعى لتعزيز دورها بين الشرق والغرب"، الكويت تايمز، ١ أبريل ٢٠٠٧م.
http://www.kuwaittimes.net/read_news.php?newsid=MTY2NTUzODY4Mg.

(١٠) بشير نافع، "العدالة والتنمية يخرج تركيا من العزلة الأتاتوركية إلى العثمانية الجديدة" القدس العربي ٢٨ سبتمبر، ٢٠٠م.

(١١) هذا اعتراف حديث: "إن التركيز على الديموقراطية والليبرالية وحقوق الإنسان له أهمية استراتيجية جزئيًا؛ حيث إنه ينصب في صالح القوة الأمريكية ويكشف أيضًا عن نقاط الضعف في القوى الاستبدادية." كاجان "، نهاية الأحلام ، عودة التاريخ ."

(١٢) المبادئ الثلاثة لكانط "نحو السلام الدائم" نشرت في ١٧٩٥م، هي أيضًا الشروط التي يمكن تأسيس نظام عالمي عادل عليها:

› "ينبغي أن يكون الدستور المدني في كل دولة دستورًا جمهوريًا".

› "يجب تأسيس قانون الأمم على اتحاد ولايات حرة".

٣- "يقتصر قانون المواطنة العالمية على شروط كرم الضيافة العالمي". ارجع إلى ايمانويل كانط ، "نحو السلام الدائم"، وإلى كتابات أخرى في السياسة والسلام والتاريخ، (نيو هيفن : مطبعة جامعة ييل ، ٢٠٠٦م).

(١٣) لتقييم هذه المبادرات، ارجع إلى عمر تاسبينار "سياسات تركيا في الشرق الأوسط : بين العثمانية الجديدة والكمالية" أوراق كارنيغي، رقم ١٠ (سبتمبر ٢٠٠٨م).

(١٤)غسان شربل، "تركيا والبحيرة المطربة"، جريدة الحياة ، ٢٠٠٨/٠٢/٢٥م.
http://english.dar-alhayat.com/opinion/OPED/02-2008/
Article-20080225-51443145-c0a8-10ed-017c-43245454376c/ story.html

(١٥)"قصة حضارتين،" الأهرام ويكلي، al-Ahram Weekly ، العدد ٨٧٩ (١٠ - ١٦ يناير ٢٠٠٨م)
http://weekly. ahram.org.eg/2008/879/re63.htm.